مفهوم الحرّية في الخطاب القرآني دراسة موضوعية

رضوان جمال الأطرش

مقدمة البحث:

من الموضوعات القديمة والحديثة التي شغلت مساحة واسعة في الفكر السياسي الإسلامي والغربي، مسألة الحريات العامة، وهل الحرية مطلقة لا قيد لها أم أنها مقيدة بحدود؟، وتعدّ هذه الموازنة صعبة للغاية إذا ما تحدثنا عنها من وجهة النظر القرآنية؛ ومن جهة أخرى إن قضية الحرية ضرورية في الخطاب القرآني ومهمة بل من أهم القضايا في ديننا الحنيف، لأنها تعدّ القوة الكامنة في داخل الإنسان والتي تبلور إمكاناته النفسية وتخرجها إلى الواقع في حيز الفعل. إننا نحن المسلمين نعتقد بأن القرآن الكريم كتاب شامل يوجّه كل الأنظمة الحياتية، ولكننا في نفس الوقت نشعر بأننا عاجزون في الواقع عن تنظيم حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ذلك أن الأداة المعينة على ذلك غير فعّالة، وأقصد بتلك الأداة "الحرية" للأفراد والجماعات. ومما زاد الأمر تعقيدًا أن القرآن الكريم لم يتكلم عن الحرية بشكل صريح وواضح، رغم أهمية هذا المفهوم الشديدة، ولكنه حين أراد أن يشير إلى معانيها، تحدث بأسلوب مغاير لم تعهده البشرية. فمثلًا لقد أعلن بشكل واضح معالم منهج تحرير للإنسان، وأعلنها بصراحة وتأكيد إلى درجة أنه يمكن أن نقول بصياغة العصر أن القرآن أعلنها "ثورة تحريرية" لكل العباد حين أمرهم أن لا يعبدوا إلا الله، ورفض الأغلال والقيود بكل أشكالها الظاهرية والباطنية وما لها من آثار على النفس والفكر.

تحديد مفهوم الحرّية في اللغة والاصطلاح:

الحرية لغة: جاءت كلمة "الحرية" من الفعل حرر بمعنى أعتق، ولقد ورد في **الفائق** للزمخشري معنى حرر بقوله: "يُقَال: حرَّ العبد حرارًا، قال: ... وما رُدَّ بَعْد الحَرارِ عَتيق"[1]. وفي **المعجم الوسيط،**

١- محمود بن عمر الزمخشري، **الفائق في غريب الحديث**، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٧١م، ج ١، ص ٢٧٧.

يقال: حرّره أي أعتقه، ويقال: حرَّر رقبته، والولد أفرده لطاعة الله وخدمة المسجد، قال تعالى على لسان امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[٢] يقول الماوردي: في كلمة "محرّرًا" ثلاثة أقاويل: أحدها: محرّرًا أي مُخْلَصًا للعبادة، وهذا قول الشعبي. وأضاف الجزائري: "أي خالصًا لا شركة فيه لأحد غير الله بحيث لا تنتفع به أبدًا"[٣]. والثاني: يعني خادمًا للبيعة، وهذا قول مجاهد. يقول القرطبي: "محرّرًا مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية، من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد"[٤]. والثالث: يعني عتيقًا من الدنيا لطاعة الله، وهذا قول محمد بن جعفر بن الزبير[٥]. وعلّق ابن عاشور بقوله: "وإطلاق المحرر على هذا المعنى إطلاق تشريف لأنه لما خلص لخدمة بيت المقدس فكأنه حرر من أسر الدنيا وقيودها إلى حرية عبادة الله تعالى"[٦].

وقال ابن منظور في شرح معاني الكلمة: "والحُرُّ بالضم نقيض العبد، والجمع أَحْرَارٌ وحِرارٌ، الأَخيرة عن ابن جني، والحُرَّة نقيض الأَمة، والجمع حَرائِرُ شاذ، ومنه حديث عمر قال للنساء اللاتي كنَّ يخرجن إِلى المسجد: "لأَرُدَّنَّكُنَّ حَرائِرَ"[٧] أَي لأُلزمنكنّ البيوت، فلا تخرجن إِلى المسجد، لأَن الحجاب إِنما ضرب على الحرائر دون الإِماء. وحَرَّرَهُ: أَعتقه. وفي الحديث: "من رمى بسهم في سبيل الله فله عدل

٢- سورة آل عمران، الآية: ٣٥.

٣- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ٣٠٩.

٤- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٢هـ، ج ٤، ص ٦٦.

٥- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، **تفسير الماوردي: النكت والعيون**، تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٣٨٦.

٦- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ٣، ص ٨٤.

٧- زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، **فتح الباري**، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، ط ٢، ١٤٢٢هـ، ج ٢، ص ٤٤٨. وانظر: علي بن حسام الدين المتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م، رقم الحديث: ٢٣١٣١، إذن النساء للصلاة، ج ٨، ص ٥٤٦.

مُحَرَّرٍ"(٨) أي أجر معْتَق، والمحرر الذي جُعل من العبيد حرا فأُعتق، يقال: حَرَّ العبدُ يَحِرُّ حَرارَةً بالفتح أي صار حُرا، ومنه حديث أبي هريرة: "فأنا أبو هريرة المُحَرَّرُ"(٩) أي المُعْتَق. وحديث أبي الدرداء: "شراركم الذين لا يُعْتَقُ مُحَرَّرُهم"(١٠) أي أنهم إذا أعتقوه استخدموه فإذا أراد فراقهم ادَّعَوْا رِقَّه. ولذلك قيل: إن العرب كانوا إذا أعتقوا عبداً باعوا ولاءه ووهبوه وتناقلوه تناقل الملك، قال الشاعر:

فباعوه عبدًا ثم باعوه معتَقًا فليس له حتى الممات خلاص(١١).

والتحرير: العتق، وهو جعل الإنسان حرًا قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾(١٢) أو هو تصيير المملوك حرًا(١٣). أو تخليص النفس من الأسر أو الرق(١٤). فقد جعل القرآن تحرير الرقيق وسيلة من وسائل تحرير النفس من عذاب الله يوم القيامة، بل هو الكتاب الوحيد الذي دعا إلى تحرير العبيد، حيث جعل في كفارة الصيام عتق رقبة(١٥)، وفي كفارة اليمين عتق رقبة(١٦)، وفي كفارة الظهار عتق

٨- محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، رقم الحديث: ٢٤٦٩، ج ٢، ص ١٠٤. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وله شاهد عن عمرو بن عبس، تعليق الذهبي في **التلخيص**: على شرط البخاري ومسلم.

٩- أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، كتاب السير، باب: ما جاء في قتال الهند، رقم: ١٨٣٨٠، ج ٩، ص١٧٦. (إسناد ضعيف جدّا، بسبب البراء الغنوي، لينظر: ابن حجر، التهذيب، دائرة معارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ، ج١، ٤٢٦).

١٠- أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، باب الحاء مع الراء، ج ١، ص ٩٣١.

١١- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، مادة: حرر، ج ٤، ص١٧٧.

١٢- سورة النساء، الآية: ٩٢.

١٣- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: زكريا عبد المجيد النوقي، أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج ٢، ص ٤٤٩.

١٤- محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، كتاب العتق، باب: ما جاء في العتق وفضله، ج ٢، ص ٨٨٩.

١٥- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هلكتُ يا رسول الله. قال: "وما أهلكك"؟ قال: وقعت على امرأتي في رمضان. قال: "هل تجد ما تعتق رقبة"؟ قال: لا. قال: "فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين"؟ قال: لا. قال: "فهل تجد ما تطعم ستين مسكينًا". قال: لا. قال أبو هريرة: ثم جلس فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بعرق (مكتل) فيه تمر. قال: "تصدق بهذا". قال: فما بين لابتيها أهل بيت أحوج =

رقبة(١٧)، وفي كفارة القتل عتق رقبة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾(١٨). فقد ورد في تفسير النسفي: "من أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء (بالقتل) لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات إذ الرق أثر من آثار الكفر والكفر موت حُكمًا، قال تعالى: أو من كان ميتا فأحييناه"(١٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعط أجره"(٢٠). أي باع رجلًا حرًا وهو يعلم أنه حر فأدى ذلك إلى سلبه حريته وجعله عبدًا، الأمر الذي أدى إلى موت كرامته وكسر شخصيته الحرّ المعتزة بنفسها وإذلاله بعد عز، ثم لأن الحرية لها خاصية معينة وأخلاق كريمة معينة أدى سلبها إلى تغيير تصرفاته من تصرفات الأحرار إلى تصرفات العبيد، ولن يتخذ قرارًا لنفسه، فالحرية منحة ربانية لا يجوز سلبها ولا المنّ بها على عباد الله. ورد في صحيح البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة"(٢١) فهذا دليل يُقاس عليه أن العبد المملوك لسيده أقل شأنًا من الحر، ولهذا يمكن القول بأن الله قد جعل عتق المماليك والعبيد عقابًا وكفارة لخطيئة ارتكبها الحر المذنب.

= إليه منّا؟! "فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه"، وقال: "اذهب، فأطعمه أهلك". أخرجه الترمذي في جامعه، انظر: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الصوم، باب: ما جاء في كفارة الفطر في رمضان، رقم الحديث: ٧٢٤، ج ٣، ص ١٠٢. قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

١٦- قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ سورة المائدة، الآية: ٨٩.

١٧- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ سورة المجادلة، الآية: ٣.

١٨- سورة النساء، الآية: ٩٢.

١٩- عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، بدون المعلومات المطبعية، ج ١، ص ٢٤٠.

٢٠- أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب: إثم من منع أجر الأجير، رقم الحديث: ٢١١٤، ج ٢، ص ٧٧٦.

٢١- أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم الحديث: ٦٧٢٣، ج ٦، ص ٢٦١٢.

والمدقق يجد أن معاني الحرية في اللغة تطلق على التخلص من العبودية لغير الله ليصبح راضيًا بقراره مختارًا غير مكره، كما تطلق على تحرير العبد وتخليصه من الرق والأسر فيصبح غير مكره ومجبر على تصرفاته. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ ﴾(٢٢).

ولو أردنا استكشاف معنى كلمة الحرية من الزاوية السياسية، لقلنا: إن المقصد من الحرية هو إعتاق الشعوب من الذل والمهانة والاستبداد والقهر من ربقة حكامها العبيد لأسيادهم في الغرب والشرق، فالشعوب تعيش حالة من القهر والذل من قبل حكامها الذين هم عبيد لأسيادهم في أوروبا وأمريكا، وأرذل أنواع العبودية أن يكون المرء عبدًا لعبد.. والذي يزيد الأمر تفاقمًا وتعقيدًا، أن غالبية السلطات في العالم العربي ترفع شعارات الحرية في وجه الأمة، والحقيقة أنها باسم الحرية تئد كل معاني التحرر في نفوس أجيال الأمة.

وعليه فإن تعريف الحر يدخل في السياق الآتي: يرى ابن قيم الجوزية أن الحر هو: "من يصدر عنه الفعل مع الإرادة للفعل على سبيل الاختيار"(٢٣). ويرى الشيخ أبو زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى: أن الحر حقًا هو الشخص الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية، الذي يعلو بنفسه عن سفاسف الأمور، ويتجه إلى معاليها ويضبط نفسه، فلا تنطلق أهواؤه ولا يكون عبدًا لشهوة معينة، بل يكون سيد نفسه، فالحر من يبتدئ بالسيادة على نفسه، ومتى ساد نفسه وانضبطت أهواؤه وأحاسيسه يكون حرًا بلا ريب(٢٤). وبناء على هذا التعريف فإن الأحرار قليلون في عالمنا الإسلامي.

تعريف الحرية في الاصطلاح:

وردت عدة تعريفات حول الحرية، نختار منها الآتي:

التعريف الأول:

الحرية هي أن يتصرف الفرد باختياره ما يشاء من تصرفات مشروعة دون أن يضر نفسه أو غيره. لأن من حق الإنسان أن يفكر بأي شيء أو يعتقد أي شيء، طالما كان هذا الاعتقاد والتفكير، وهذا

٢٢- سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

٢٣- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق**: علي ابن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط ٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج ٣، ص ٩٦٤.

٢٤- نعمان عبد الرزاق السامرائي، **النظام السياسي في الإسلام، فهرست مكتبة الملك فهد** الوطنية، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ١٧٥-١٧٦.

التصرف لا يؤدي إلى ضرر الغير أو النفس أو الأشياء أو الممتلكات أو الحيوانات... إلخ. فالحرية باختصار هي ما يجعل الإنسان يصنع ويفعل ما يريد في ظل ما تبيحه القوانين.

التعريف الثاني:

الحرية تعني انعدام القيود، أو هي عبارة عن قدرة المرء على فعل ما يريده(٢٥).

سر الغياب اللفظي لكلمة الحرية من الخطاب القرآني:

لم ترد كلمة الحرية في القرآن الكريم، ولكنها وردت بمشتقاتها العديدة المختلفة، ذات الدلالات المتنوعة، ولعل السّر في غياب مفهوم الحرية اللفظي، يرجع إلى أنه متأصل ومتجذر في التكوين الفطري الإنساني، والحديث عنه كالحديث عن الأشياء البدهية المعلومة، وعن المعلوم بالدين بالضرورة. إن الخطاب القرآني منح الإنسان حرية أصيلة بولادته، باعتبارها حقًا دينيًا وإنسانيًا، ولا يسلبها منه إلا معتد أثيم، ولكن هذه الحرية محددة بما حدده الشرع من حرام وحلال.

وقبل الحديث عن الدلالات الناتجة عن مشتقات الحرية، نقرر أن الغياب اللفظي لا يعني بحال تجاهل القرآن للحرية كقيمة أصيلة لها حضورها الفاعل في التنمية الإنسانية، بل كان القرآن محاربًا للرق بشتى أشكاله.

وفي أسلوب آخر، نجد أن القرآن الكريم جعل الحرية من أبرز مقاصده وقيمه العظمى، بدليل اعتبارها حقًا جبليًا فطريًا لا يجوز أن يتنازل عنها المرء لأي كان حتى لشهوته وهواه ونفسه، ولو استدعى الأمر ترك الوطن والهجرة إلى أراضي الله الواسعة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(٢٦). ففي الآية تهديد شديد لمن يرضى بالاستعباد والرضوخ لغير الله، تأمره بالهجرة إلى أرض تنعم بالحرية، وإلا كان العقاب الأليم في الآخرة. فالحرية هي الأصل الذي يولد عليه الناس ولا تحتاج إلى إثبات، لكن الرق هو الذي يحتاج إلى إثبات، وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب في القصة المشهورة التي تسابق فيها ابن عمرو بن العاص مع قبطي، قائلًا له: "متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم

٢٥- عبد الرحمن بن عبد الله الفاضل، **التربية الإسلامية وتحديات العصر**، بحث متطلب لمادة التربية الإسلامية وتحديات العصر يقدم لسعادة الدكتور محمد علي أبو رزيزة من قسم التربية الإسلامية والمقارنة بكلية التربية بجامعة أم القرى، ذو الحجة ١٤٢٧هـ/يناير ٢٠٠٧م، ص ٤.

٢٦- سورة النساء، الآية: ٤٩.

أحرارًا"(٢٧). وهذا ما صرح به ربعي بن عامر حين واجه رستم ببلاد الفرس، حين سأله رستم عن الأسباب التي دفعتهم لحرب الفرس؟ فأجابه ربعي: "جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة"(٢٨)، فهاته المواقف تعكس روح التعاليم القرآنية التي خوطب بها الناس وطبقوها.

فالحرية هي الأصل الذي يولد عليه البشر، وحق وهبه الله لهم، ولا يحتاج منحها وتوفيرها إلى تبرير، بل إن سلبها من البشر هو الذي يحتاج إلى تبرير، ولو آمنا بذلك لحرمنا التدخل في شؤون الآخرين، ولما سلبنا منهم الحرية، فالبشر أحرار فطرة وأصالة وولادة وبحكم خلق الله لهم، ومسألة مقدار التدخل في شؤون البشر محدودة، ويكون تبريرها حين تعتدي الحرية الشخصية على حريات الآخرين.

يقول الإمام حسن البنا في رسائله: "والإسلام الحنيف يعلن الحرية ويزكيها، ويقررها للأفراد والأمم والجماعات بأفضل معانيها، ويدعوهم إلى الاعتزاز بها والمحافظة عليها"(٢٩). ويقول رحمه الله: "لا يجوز الاعتداء على الحرية لأنه يعد نوعًا من أكبر أنواع الظلم"(٣٠). فالخطاب القرآني أقر الحرية لكل البشر في زمن الاستعباد الفكري والسياسي والديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، حرية الاعتقاد، وحرية الفكر، وحرية القول، ...إلخ.

معاني الحرية وأشكال حضورها في الخطاب القرآني:

إن مفهوم الحّرية مفهوم أصيل مرتبط بفطرة الإنسان وبكلمة التوحيد وبنزول الوحي، يقول علال الفاسي: "فما كان الإنسان ليصل إلى حريته لولا نزول الوحي"(٣١). لأنه تعبير صادق على أن الإنسان يمتلك إرادته واختياره ويتحمل نتائج قراره واختياره، وهذا ما قررته الآية الكريمة: ﴿فَمَن شَآءَ

٢٧- محمد الغزالي، **التعصب بين المسيحية والإسلام**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، بدون التاريخ، ص ٢٢٧. وانظر: أكرم بن ضياء العمري، **عصر الخلافة الراشدة: محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين**، مكتبة العبيكان، ص١٢٧. وانظر: يوسف بن حسن بن عبد الهادي المبرد، **محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، تحقيق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م، ج ٢، ص ٤٧٣. وفي إسناده انقطاع هذا يعني أن الأثر ضعيف.

٢٨- إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، مؤسسة الهدى، القاهرة، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج ٧، ص ٤٢.

٢٩- حسن البنا، **مجموعة رسائل الإمام البنا**، (بدون الناشر والمطبع والتاريخ) ص ٣٣٠.

٣٠- المرجع السابق، ص ٢٠٢.

٣١- http://alwaei.com/topics/current/article_new.php?sdd=2114&issue=532
Accessed on 7-5-2011.

فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٣٢]. ولهذا فأي إنسان مهما كان دينه وطبيعته، يحب الحرية ويعشقها كروحه، **الأمر الذي يعني أنه يكره القيود والكبت والاستغلال القهري المخالف للحرية**. ولا أبالغ إن قلت إن أكثر الصراعات بين **الناس كانت من أجل نيل الحرية**.

ذكرنا فيما سبق أن مشتقات لفظة الحرية حظيت بحضور لا بأس به في الخطاب القرآني، مثل كلمة الحر ومحرر وتحرير. **فتجده أحيانًا** يستخدم الأمثال لإيضاح القيمة الحقيقية لمفهوم الحرية وذلك لما في الأمثال من مكانة عميقة في عملية الإقناع، وتجده أحيانًا أخر يتحدث وبشكل مثير للغاية عن الحرية بشكل عملي حاضر في الواقع البشري.

أما استخدام الأمثال **لإيضاح** قيمة الحرية الحقيقية فنراه حاضرًا في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣٣]. هذا المثل ضربه الله تعالى للتفريق بين المؤمن والكافر، فالمؤمن حر في تصرفاته، والكافر عبد أسير لأصنامه، لا يتصرف في عمله تصرف الأحرار[٣٤]، فالمؤمن حر في الخطاب القرآني يملك ما في يده، وقادر على التصرف بماله وعقله وإرادته، وهو يطيع أمر الله سرًا **وجهرًا، ولا يخشى أحدًا إلا الله**. أما العبد المملوك فهو مقيد ولا يملك ما في يده، **حيث لا سلطة له ولا إرادة ولا قرار**، ولا يعمل في سبيل الله، ولا يؤمن بالآخرة، فهي دعوة للحرية وللحياة في ظلالها، لأنه **لا مساواة بين الأحرار والعبيد**.

أما الحديث عن الحرية بشكل عملي: فنجد الخطاب القرآني يأمر بالكتابة لإعتاق الأرقاء وذلك بهدف نشر الحرية وإحيائها كمقصد عالٍ في كل جانب من جوانب الحياة للأمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾[٣٥]، **يقول الشنقيطي: "وتشوف الشارع تشوفًا شديدًا للحرية والإخراج من الرق**. فأكثر أسباب ذلك، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ وظهار ويمين وغير ذلك. وأوجب سراية العتق، ورغب في الإعتاق ترغيبًا **شديدًا**"[٣٦]. **فقد**

٣٢- سورة الكهف، الآية: ٢٩.

٣٣- سورة النحل، الآية: ٧٥.

٣٤- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٣، ص ١٧٩.

٣٥- سورة النور، الآية: ٣٣.

٣٦- محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج ٣، ص ٢٩.

جعل الله للعبيد حقًا في الاكتساب لتحرير أنفسهم من الرق(٣٧)، وذلك من خلال الكتابة وإعطاء المجال للمماليك أن يتحرروا، والكتابة(٣٨) هي: "مقاطعة العبد على مال مُنَجَّم(٣٩)، فإذا أداه؛ خرج حرًا"(٤٠). فلهذا المعنى سمي هذا العقد كتابًا لما فيه من الأجل(٤١)، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(٤٢). ولقد ورد عن عمر بن الخطاب ومسروق وعمرو بن دينار وابن عباس والضحاك وعطاء وعكرمة والظاهرية أن الأمر بالكتابة يدل على الوجوب، وأن الكتابة واجبة على السيد إذا علم خيرًا في عبده وقد وكله الله في ذلك إلى علمه ودينه، واختاره الطبري(٤٣) وهو الراجح لأنه يجمع بين مقصد الشريعة وبين حفظ حق السادة في أموالهم، فإذا عرض العبد اشتراء نفسه من سيده وجب عليه إجابته(٤٤).

وآراء الفقهاء مختلفة في هذا الوجوب. وهو الأولى؛ فهو يتمشى مع خط الإسلام الرئيسي في الحرية وفي كرامة الإنسانية(٤٥)، وهو ظاهر قول عمر رضي الله عنه لأنس بن مالك رضي الله عنه، حين سأله مملوكه سيرين الكتابة فأبى عليه أنس، فقال له عمر: لتكاتبنه، أو لأوجعنك بالدرة(٤٦). ورجح

٣٧- محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ١٧٤.

٣٨- يقول ابن عاشور: "وسموا ذلك كتابة لأن السيد وعبده كانا يسجلان عقد تنجيم عوض الحرية بصك يكتبه كاتب بينهما، فلما كان في الكتب حفظ لحق كليهما أطلق على ذلك التسجيل كتابة لأن ما يتضمنه هو عقد من جانبين، وإن كان الكاتب واحدا والكتب واحدا. وفي حديث عبد الرحمان بن عوف: "كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة"، انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ١٧٤.

٣٩- أي موزّعا على مواقيت معينة.

٤٠- أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، **البحر المديد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٢م/١٤٢٣هـ، ج ٥، ص ١١٤.

٤١- أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج ١٤، ص ٣٦٩.

٤٢- سورة الرعد، الآية: ٢٨.

٤٣- قال الطبري رحمه الله: "وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: واجب على سيد العبد أن يكاتبه إذا علم فيه خيرا، وسأله العبد الكتابة"، انظر: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١٩، ص ١٩٨.

٤٤- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ١٧٤.

٤٥- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ج ٥، ص ٢٧٩.

٤٦- ابن عجيبة، **البحر المديد**، ج ٥، ص ١١٤. قال ابن كثير: إسناده صحيح، انظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج٣، ص ٣٥٠.

ابن كثير أنه ضربه(٤٧). هذا هو الأمر، أن يصل الحال بعمر بن الخطاب أن يضرب أنس بن مالك من أجل إحياء مبدأ الحرية ويطلق عبدًا مملوكًا ويصيِّره حرًا ذا إرادة حرة واختيار وقرار، وليكون مثلًا لغيره في تطبيق هذا المفهوم الكبير.

ومن معاني الحرية الحاضرة في الخطاب القرآني ما يلي:

أولًا: عدم المس بحرية الاختيار الهدائي للإنسان:

ففي مجال الدعوة إلى الله يحثّ القرآن الكريم في أساليب مختلفة على الحذر الشديد من ممارسة القهر والجبر والإرهاب والقسر والإلزام في مسألة حرية الأفراد من قبول أو رفض هذا الدين الجديد، وكان الخطاب بدءًا موجهًا للنبي الكريم لتعلم أمته كلها أن المس بقرار الهدى يخالف المقصد الأسمى الذي نزل لأجله القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾(٤٨). ثم ضرب القرآن للمؤمنين أمثلة عديدة يطلب منهم من خلالها استعمال اللين والرفق واليسر والسهولة في مخاطبة المدعوّين، حتى لو كانوا ظلمة مجرمين، قتلة سفاحين وطغاة مفسدين. فقد أمر المؤمنين أن يحتذوا بموسى وهارون عليهما السلام، حين أمرهم الله أن يخاطبوا فرعون بخطاب ليِّن رفيق، قائلًا لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(٤٩).

ثانيًا: الحرية هي العبودية لله عز وجل وحده:

ومن معاني الحرية في الخطاب القرآني التركيز على أن الإنسان الحر هو من كان عبدًا لله وحده، وأن أي منهج لتحرير الإنسان من رق العبودية بكل أشكالها يبدأ من توجه العبد بقلبه وعقله وتصوره وفكره وبدنه لله وحده. لأن تعاليم الخطاب القرآني جاءت لتحرر الإنسان من ذل عبودية الأصنام على أساس التوحيد، وتنقله إلى عز العبودية لله وحده، يقول الشعراوي: "لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده، أما العبودية لله تعالى فعزٌّ وشرف، حيث يأخذ العبدُ خير سيده، فهي عبودية سيادة، لا عبودية قهر"(٥٠). ذلك أن العبودية لله تدور حول إنسانية الإنسان وكرامته. وأنه لا يمكن أن تتحقّق إنسانية الإنسان وأن يتذوق الكرامة الإنسانية إلا بعبادة الله، فالعبودية لله عز وجل تعني رقيا لروح العبد وعقله، وتعني أن يتقرب الإنسان إلى ربه وأن يتحرر الإنسان من نيران الظلم البشري، وأن يتحرر من فتنة

٤٧- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٥٠.

٤٨- سورة يونس، الآية: ٩٩.

٤٩- سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤.

٥٠- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، (بدون المعلومات المطبعية) ص٢٨٨٩. تفسير سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

شهوات نفسه وأهوائها خالصًا لله تعالى. ولقد عاب الخطاب القرآني على كل من يعبد ذاته ومن يهوى، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٥١). قال ابن جبير: "نزلت في قريش والعرب، كانوا يعبدون الحجارة والذهب والفضة، فإذا وجدوا شيئًا أحسن ألقوه وعبدوا غيره"(٥٢). يقول ابن عاشور: "والأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين"(٥٣). فالذي يعبد هواه إنسان لا يعتبر بموعظة، ولا يتدبر نتائج الأشياء، وهو أعمى لا يبصر حقًا ولا حقيقة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٥٤). وصدق الشاعر حين قال:

ومَن أباح النفس ما تهواه فـإنمـا معبـوده هـواه(٥٥).

فالحرية الحقيقية من وجهة نظر القرآن الكريم في خصومة أبدية مع أغلال الشرك وظلماته، وتظهر معالمها جلية في رفض كل سيادة لغير الله، وتدعو إلى التخلص من أي قانون وضعي بشري محدود يتحكم في مقدرات عباد الله، ذلك أن توحيد الله هو سر الفلاح والنجاح في الدارين وهو جوهر الحرية كلها، وأن الشرك بالله هو عين السجن والإصر والقيد والغل لأي انطلاقة حرة للإنسان نحو السعادة الأبدية. قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(٥٦). فمن علامات كون الحر حرًا في القرآن أن لا يؤمن بكل أشكال القوانين الوضعية، لأنها تضعف القوى المبدعة الكامنة في النفس الإنسانية. فكل حضور للشرك هو قيد للحرية وهو عين غياب العدل، وكل هيمنة للشرك تعني تقييد الإنسان بأغلال فكرية وظلمات سلوكية، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٥٧).

الحرية وضبط الأخلاق:

ومن أهم الوسائل التي أوجب فيها الإسلام تحرير الرق، أنه ربط بين الحرية والأخلاق، وبين الرق وهبوط المستوى الخلقي للإنسان، ولعل سيد قطب رحمه الله كان موفقًا في إدراك العلة التي تجعل

٥١- سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
٥٢- ابن عجيبة، البحر المديد، ج ٧، ص ١٠٢.
٥٣- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٥، ص ٣٦٦.
٥٤- سورة ص، الآية: ٢٦.
٥٥- ابن عجيبة، البحر المديد، ج ٧، ص ١٠٢.
٥٦- سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
٥٧- سورة لقمان، الآية: ١٣.

عمر بن الخطاب يغضب لتلكؤ أنس بن مالك عن تحرير عبد له، يقول رحمه الله: "ولما كان وجود الرقيق في الجماعة من شأنه أن يساعد على هبوط المستوى الخلقي، وأن يعين على الترخص والإباحية بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الإنسانية. لما كان الأمر كذلك، عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة. حتى تتهيأ الأحوال العالمية لإلغاء نظام الرق كله، فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبة على حريته. وذلك في مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته"(٥٨).

من جانب آخر، يقول محمد أبو زهرة: "وإن إعتاق الرقاب من أحب ما يطلبه الله تعالى من عباده إليه، لأن فى ذلك صيانة لكرامة الإنسان من الابتذال، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٥٩)، ولأن فى الحرية كمال الإنسانية وكمال التكليف الاجتماعي، ولأن فى الحرية قوة وتحمل الأعباء وأن يكون جزءا من المجتمع يسيره إلى الخير"(٦٠).

ولتحقيق القيمة المقاصدية لمفهوم الحرية بشكل عملي أمر الله عز وجل الأسياد أن لا يتأخروا في قبول دعوة مماليكهم بغية التحرر من ذل الرق والعبودية، وأخرج عبد الرزاق وأحمد والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله"(٦١)، يقول ابن عاشور: "أمر الله السادة بإجابة من يبتغي الكتابة من عبيدهم تحقيقا لمقصد الشريعة من بث الحرية في الأمة، ولمقصدها من إكثار النسل في الأمة، ولمقصدها من تزكية الأمة واستقامة دينها"(٦٢).

ولعل الأهم في مسألة تحرير الأرقاء هو إعانتهم على الكسب الحلال حتى لا يكونوا وبالا على المجتمع، ولا يُتركوا عالة فقراء يتذللون للناس ويتسولون على أبواب كل طريق، ولا يلجأوا إلى وسائل

٥٨- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧٩.

٥٩- سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

٦٠- محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة، ج ١، ص ٥٢٥.

٦١- انظر: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، كتاب النكاح، ذكر معونة الله جل وعلا القاصد في نكاحه العفاف والناوي في كتابته الأداء، رقم الحديث: ٤٠٣٠، ج ٩، ص ٣٣٩. قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

٦٢- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ١٧٤.

تكسبية غير شريفة، وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله: "فليس المهم أن يقال: إن الرقيق قد تحرر. وليست العنوانات هي التي تهمه. إنما تهمه الحقيقة الواقعة. ولن يتحرر الرقيق حقًا إلا إذا قدر على الكسب بعد عتقه؛ فلم يكن كَلًّا على الناس، ولم يلجأ إلى وسيلة قذرة يعيش منها، ويبيع فيها ما هو أثمن من الحرية الشكلية وأغلى، وهو أعتقه لتنظيف المجتمع لا لتلويثه من جديد؛ بما هو أشد وأنكى"(٦٣).

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه"(٦٤). فرسول الله صلى الله عليه وسلم هدف بهذا التفضيل وبهذه الخيرية أن يحب الرجل نوعًا من الأعمال الشريفة التي تعين على الكسب الحلال، مهما كانت قيمة هذا العلم في نظر الناس، فما دام الرجل يعف نفسه ويستغني بذلك عن مسألة الناس من أجل الكسب الحلال فهو في ساحة الرضا الرحماني، فالمشي في مناكب الأرض وجوانبها عمل كريم كانت تفعله الأنبياء والرسل، أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"(٦٥).

ولهذا لا يجوز الاستخفاف بمن يعمل أعمالًا شريفة طلبًا لإعفاف النفس، لأن سؤال الناس يعرض النفس للمهانة والمذلة، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم"(٦٦)، ففي الحديث إشارة إلى كمال الذل والمهانة، لكن العمل الشريف كف للوجه من أن يراق ماؤه، وعز واحترام للنفس، ومهما كان وضعه فسوف يكسب النفس العاملة الإكبار والاحترام والاعتزاز، وهذه هي القابلية للعيش الكريم بشكل حر، وهذا هو الاستعداد النفسي للحياة في حرية وإباء، يقول الكواكبي: "قرر الحكماء أن الحرية التي تنفع الأمة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها"(٦٧).

٦٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٨١.

٦٤- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم الحديث: ١٤٧٠، ج ٣، ص ٥٢٠.

٦٥- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع، كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث: ١٩٦٦، ج ٢، ص ٧٣٠.

٦٦- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس، رقم الحديث: ٢٤٤٣، ج٢، ص ٧٢٠.

٦٧- عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، بدون المعلومات المطبعية، ص ١٥٩.

الحرية في الخطاب القرآني مسؤولية:

الحرية هي جزء من المسؤولية: إن آيات القرآن التي تتحدث عن المسؤولية جاءت لتحدد لنا الحديث عن مجالات الحرية، وتصرح بشكل علمي أن الحرية القرآنية ليست حرية مطلقة، بل هي حرية مقيدة بقيود حددها الشارع الحكيم، فالإنسان يقف أمام حدود معينة، فمثلًا هو يسأل عما يقوله ويفعله، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(٦٨)، فالإنسان عبد لله وسوف يسأله سبحانه عن كل ما استعمَل فيه آلة السمع، ونعمة البصر، وما استودع فيه فؤاده. ومن قال سمعت والحقيقة أنه لم يسمع، فسوف يسأله الحكيم العليم، وإذا قال رأيت ولم ير، فهو مسئول عن ذلك، وخصوصًا إن كان ذلك متعلقًا بشهادة زور وضياع لحقوق الناس، وسوف يشهد عليه سمعه وبصره يوم القيامة عن الممارسات التي قام بها في هاتين الآلتين. وهذا ما أكدته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٦٩). إذًا حرية التعبير ليست مطلقة ولا بد من التثبت والتأكد والتيقن قبل أن يرمي الإنسان أخاه بما ليس فيه، والتوهم والتخيل والظن لا ينفع في هاتيك المواقف. فقد أخرج النسائي في سننه بسنده أن شتير بن شكل أخبره عن أبيه شكل بن حميد قال: "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا نبي الله علّمني تعويذا أتعوذ به فأخذ بيدي ثم قال: "قل: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وشر قلبي"(٧٠).

فهذه الآيات وهاتيك الأحاديث تثبت الحرية وتحققها وتؤكد وجودها ولكن ليس بشكل مطلق، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾(٧١) فالإنسان مسؤول أمام ربه، وهناك ملائكة مقربون يسجلون لنا أو علينا كل نظرة وكل حركة وكل همٍّ بفعل، وكل كلمة وكل حركة وكل قول وفعل. يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٧٢).

٦٨- سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

٦٩- سورة النور، الآية: ٢٤.

٧٠- وصححه الحاكم، المستدرك، ج ١، ص ٥٣٣، ووافقه الذهبي. وأخرجه النسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، باب: الاستعاذة من شر السمع والبصر، رقم الحديث: ٥٤٤٤، ج ٨، ص ٢٥٥.

٧١- سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

٧٢- سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

مثال قرآني على أن الحرية والمسؤولية متكاملتان في آن واحد:

قصة آدم عليه السلام:

تعدّ هذه القصة أول قصة في القرآن الكريم وتحمل في ثناياها معاني عديدة، أبرزها أن هذا الإنسان كائن حر أصلًا، ولد والحرية مزروعة في فطرته وتفكيره وثناياه، فآدم لم يخطئ ولم يجترئ على ما فعله إلا وكانت الحرية أساسًا فطريا والإرادة أداة حقيقية يمتلكها، ولهذا فهو اعتمد عليها في اتخاذ القرار بأكل الشجرة، ولم يتدخل رب العزة بمنعهما من الوصول إلى الشجرة المحرمة، ولو تدخّل رب العزة في الأمر لما كان عصيانًا وذنبًا. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٧٣).

من جهة أخرى، كانت الحرية ملازمة لآدم حين اختير ليكون خليفة على الأرض، وأبرزت الملائكة مخاوفها من هذا الاختيار، لأن طبيعة الإنسان الحر بلا قيود أن يفسد ويبطش ويكون عنيفًا مفسدًا، لكن الله أكد للملائكة أن الحرية (ذات الطابع المسؤولي) هي طريق التعلم والتقدم(٧٤).

أنواع الحرية:

هناك أنواع عديدة للحرية، وذلك على الشكل الآتي: أولًا ـ الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية.

ثانيًا ـ الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية(٧٥).

الصنف الأول: الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المادية:

وهذا الصنف يشمل كثيرًا من أنواع الحريات ولكني سأركز على واحدة منها، وهي:

الحرية الشخصية:

يقصد بها أن يكون الإنسان قادرًا على التصرف في شؤون نفسه، وفي كل ما يتعلق بذاته، آمنًا من الاعتداء عليه، في نفسه وعرضه وماله، على ألا يكون في تصرفه عدوان على غيره. والحرية الشخصية تتضمن شيئًا في غاية الأهمية، وهو أن النفس الإنسانية تكون مقدسة، ولها حرمة، وذلك على النحو الآتي:

٧٣- سورة البقرة، الآيات: ٣٤-٣٨.

٧٤- http://www.hekmah.org/portal/.

٧٥- http://nawaat.org/portail/2005/02/07/freedom-and-rights/ Accessed on 30-04-2011.

اهتم الخطاب القرآني في عدد كبير من الآيات بإعلاء المنزلة الإنسانية على غيرها من المخلوقات، فأكرمه ونعّمه واحترم عقله وميّزه بالتفكير وحرّم امتهان ذاته واحتقارها وسلب حريتها، يقول الكواكبي: "إن الأمة إذا ضُرِبت عليها الذِّلة والمسكنة، وتوالت على ذلك القرون والبطون، تصير تلك الأمة سافلة الطباع حسبما سبق تفصيله في الأبحاث السالفة، حتى إنها تصير كالبهائم، أو دون البهائم، لا تسأل عن الحرية، ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة، أو للنظام مزية، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها، أحسن أو أساء على حدٍّ سواء، وقد تنقم على المستبد نادرًا، ولكن طلبًا للانتقام من شخصه لا طلبا للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئًا، إنما تستبدل مرضًا بمرض؛ كمغصٍ بصداع"(٧٦).

زيادة على ذلك، فقد حرص الخطاب القرآني على تقدير مشاعر الإنسان، فحرم سبّه وشتمه والازدراء والانتقاص وسوء الظن به وقتله، وأوجب القصاص من القاتل، بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾(٧٧)، أما إذا كان الاعتداء على جوارح المرء بالقطع والتلف، فعندها وجب القصاص من المعتدين، بقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ ﴾(٧٨)، وحرم عليه كل الفواحش(٧٩) ما ظهر منها وما بطن، ومن هذه الفواحش شرب الخمر(٨٠) وكل ما يفسد عقله، وحرم كذلك كل ما يقطع العلائق الاجتماعية من خلال ممارسة الزنا(٨١) والربا(٨٢) والتبرج(٨٣).

٧٦- الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٥٩.

٧٧- سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

٧٨- سورة المائدة، الآية: ٤٥.

٧٩- لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

٨٠- لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ سورة المائدة، الآية: ٩٠.

٨١- لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ سورة الأسراء، الآية: ٣٢.

٨٢- لقوله تعالى: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

٨٣- لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

ومن الحريات الموهوبة لهذا المخلوق الكريم أن وهب له حرية في تصرفاته بينه وبين الآخرين، وجعل لكل من الرجل والمرأة حرية اختيار الزوج، وحماه من كل الإجراءات غير القانونية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٨٤) وكان من تكريمه أن خلقه على أكمل الهيئات وأحسنها، وجعله يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه(٨٥)، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٨٦)، وقال سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(٨٧). فالكرامة الإنسانية منحة إلهية وحق ثابت لا يمكن سلبه من الإنسان حيًا أو ميتًا، سواء كان المكرم رجلًا أو امرأة، حاكمًا أو محكومًا(٨٨)، أبيض أو أسودا، عربيًا أو أعجميًا، وعند الموت، فلا بد من غسله وتكفينه وحمله على الأكتاف والصلاة عليه، وإن مرت جنازته على الناس أن يقفوا لها، ثم يدفن بصورة مهيبة في قبر يوارى فيه جثمانه، حتى لا يرى الناس عفن جثته، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الجلوس على المقابر(٨٩)، لأن الميت يتأذى مما يتأذى منه الأحياء(٩٠)، كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التمثيل في جثة الميت(٩١).

يقول سيد قطب في هذا السياق: "وقد كرّم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان! وكرّمه بالاستعدادات

٨٤- سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

٨٥- انظر: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج ٤، ص ٣٦٨.

٨٦- سورة التين، الآية: ٤.

٨٧- سورة غافر، الآية: ٦٤.

٨٨- http://ar-ar.facebook.com/note.php?note_id=196956320341181&comments Accessed on 2-5-2011.

٨٩- أخرج الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه، رقم الحديث: ٢٢٩٢، ج ٣، ص ٦٢.

٩٠- أخرج الحاكم في مستدركه بسنده عن عمارة بن حزم قال: "رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا على قبر، قال: انزل من القبر لا تؤذ صاحب القبر ولا يؤذيك". انظر: المستدرك على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنه، ذكر عمارة بن حزم الأنصاري رضي الله عنه، رقم الحديث: ٦٥٠٢، ج٣، ص ٦٨١.

٩١- وثبت أنه صلى الله عليه وسلم "نهى عن المُثلة" أخرجه البيهقي في سننه، انظر: البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، كتاب السير، باب تحريم قتل ما له روح إلا بأن يذبح فيؤكل، ج ٩، ص ٨٦.

التي أودعها فطرته؛ والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة. وكرّمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك. وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان! وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض"(٩٢). ويقول رحمه الله: "ومن التكريم أن يكون الإنسان قيّما على نفسه، محتملًا تبعة اتجاهه وعمله، فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانًا، حرية الاتجاه وفردية التبعة"(٩٣). فالقرآن الكريم حفظه من الانطلاق بلا قيد، وحفظه من التحرر من كل ضابط، وجعل له رقابة نابعة من ذاته ومن ضميره(٩٤).

الصنف الثاني: الحرية المتعلقة بحقوق الفرد المعنوية:

حرية الاعتقاد:

هي فكرة تقوم على الاختيار، ويقصد منها أن يختار الإنسان دينًا له وعقيدة خالصة يرتضي بها عن قناعة تامة، بعيدة عن القهر والإجبار، إذ أن الاختيار للعقائد بشكل حر، دليل أكيد على تكريم هذا الإنسان، وتحمله للمسؤولية، أما الإكراه والإجبار فهو دليل على عدم احترام الإنسان، وتقليل من كرامته وشأنه. والمتأمل في قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾(٩٥) يجد أن الخطاب القرآني حارب فكرة القهر والإجبار وأحل مكانها الحرية في الاختيار، لأنه يعتبر الإنسان مسؤولًا عن اختياره لدينه وتصوره واعتقاده، وإن أي تخويف وإرهاب وتهديد على اعتناق تصور لدين أو تَبَنٍّ لفكرة دينية أو دنيوية مرفوض جملة وتفصيلًا. وفي ذلك يقول ابن عاشور: "وتعقيب آية الكرسي بهاته الآية بمناسبة أن ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق، وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أيتركون عليه أم يكرهون على الإسلام، فكانت الجملة استئنافًا بيانيًا"(٩٦).

٩٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٥.

٩٣- المرجع السابق، ج ٥، ص ٣٦.

٩٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ سورة الملك، الآية: ١٢.

٩٥- سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

٩٦- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٤٩٩.

وأما الحديث عن حرية الاعتقاد، فلا بد لإقراره من المرور على كثير من الآيات التي تحذر كل من تسوّل له نفسه أن يجبر إنسانًا على اتباع دين ما، لأنه لا يرسخ في القلب، و لا يثبت في الضمير. لذلك قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾(٩٧) وقال أيضًا لنبيه الكريم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾(٩٨) كل هذه الخطابات القرآنية تؤكد على حرية الاختيار العقدي، وتحارب بقوة لا نظير لها كل أشكال العنف والقهر على الاختيار الديني والفكري، لأن ذلك حق إلهي وهبة من الله لعباده ولا يجوز سلبه، لأن سلبه يعني سلب الإرادة والرضا والاختيار. والمقصد من هذا الخطاب أن نعلم الناس أن يشعروا أن القهر طعمه مرّ مُذل وأن الاستبداد والإكراه خلق مهين يجب أن ترفضه النفوس والعقول والتصورات، يقول الكواكبي: "الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرّية"(٩٩).

من جهة أخرى، لم يبح الإسلام أبدًا أن يستخدم دعاة الإسلام أسلوب الإكراه لاعتناقه أو اعتناق أي فكرة أو تصور، فقال تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٠٠). والمدقق يجد أن هذا الخطاب مكي، أما في المدينة المنورة فقد جاء تعالى بخطاب مماثل لقوة الخطاب الأول، فقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾(١٠١). يقول ابن كثير في تفسيره: "أي لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّن واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بيّنة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا"(١٠٢).

وسبب نزول هذه الآية أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية إذا اقتنعت المرأة من الحمل، نذروا إذا ولدت ولدًا هوّدته" أي جعلته يهوديًا. وهكذا نشأ بعض أبناء الأوس والخزرج يهودًا، فلما أجليت بنو

٩٧- سورة يونس، الآية: ٩٩.

٩٨- سورة الغاشية، الآيتان: ٢١- ٢٢.

٩٩- الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٥٨.

١٠٠- سورة يونس، الآية: ٩٩.

١٠١- سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

١٠٢- ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط ٧، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ج ١، ص ٢٣١.

النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: **لا ندع آبناءنا**(١٠٣) وأراد بعض الآباء أن يعيدوا أبناءهم إلى الإسلام، وأن يخرجوهم **من اليهودية، بأسلوب الإكراه والإجبار وبدون رضاهم**. فأنكر الإسلام على الآباء هذا الأسلوب، رغم أن اليهودية ما تركت بآبا للعداء إلا وسلكته، إذ كانت عداوتها للإسلام ظاهرة بشكل سافر وبشتى الأساليب، وبذلك أقر الإسلام بهذا التصرف الحضاري وأثبت للناس الحرية **الاعتقادية** ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾(١٠٤)، "بل إن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك، وهو دعوة أهل الأديان إلى التمسك بأديانهم من حيث المبدأ حتى يستقيم الحوار معهم"(١٠٥).

من جهة أخرى قال رب العزة عز وجل: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾(١٠٦). **أي لو** أردنا هداية الناس بالقسر كالجمادات لفعلنا دون اختيار منهم، ولكنا أنعمنا على الإنسان نعمة الاختيار، ليختار سبل الاستدلال على الله، أو يختار سبل الضلالة، فالإيمان الحقيقي قائم على الاقتناع. ولأن الإيمان شيء داخلي يوقر في الصدر ويقوم على النية، وبالتالي لا يمكن لأحد مهما كانت سلطته أن يقهر قلب أحد على الانشراح إلى الإيمان بالله إلا إذا أراد الله له ذلك. **يقول ابن عاشور**: "ومن حكمته تعالى أن خلق الناس قابلين للهدى والضلال بتصاريف عقولهم وأمياهم، ومكّنهم من كسب أفعالهم وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف فكان منهم المهتدون وهم الذين شاء الله إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ما لهم من ولي ولا نصير"(١٠٧).

بعض جوانب الحكمة من رفض القرآن فكرة الإكراه في الدين:

إن الحكمة من رفض الإسلام منطق العنف والإكراه كوسيلة لغرس عقيدته في النفوس يرجع إلى ثلاثة أمور:

- أن سلطان العنف والإكراه على العقيدة سريع الزوال ويؤدي إلى الذل والهوان إن كان يعتمد على **الفكرة فلن تدوم به العقيدة طويلًا**.
- أنه لا يصلح إلا لفرض المبادئ والأفكار المتناقضة لإعراض الناس عليها وارتيابهم فيها.

١٠٣- المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٢.

١٠٤- سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

١٠٥- أكرم رضا، الردة والحرية الدينية، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١٨٤- ١٨٥.

١٠٦- سورة السجدة، الآية: ١٣.

١٠٧- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٥، ص ١٠٩.

- أن الإيمان الذي يأتي عن طريق العنف والإكراه لا قيمة له ولا كرامة لصاحبه لأنه ليس نتيجة لإقناع فكري ووعي عقلي. **ولا أدلّ** من رفض الله تعالى إيمان فرعون حينما أدركه الغرق حيث قال على لسان فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ **وردّ** الحق سبحانه على ذلك بقوله: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾(١٠٨).

هذا ويترتب على حرية الاعتقاد ما يلي:

١- يجب على علماء ومفكري هذه الأمة أن يُثروا المناهج التربوية بمفهوم الحرية كقيمة مقاصدية عليا، تخدمها كل مقاصد الشريعة الأخرى كمقصد الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وأنه لن تتحقق **هذه المقاصد إلا بالحرية**، ولهذا يقول الكواكبي: **"إن التعليم مع الحرية بين المعلّم والمتعلّم أفضل من التعليم مع الوقار"**(١٠٩)، وكان قصده أن نغرس في نفوس الأجيال طعم الحرية، فيتصرفوا تصرف الأحرار، ويفكروا بكل حرية وإباء، ويعبروا عن آرائهم بكل حرية، خير من أن نغرس في نفوسهم الطاعة والانقياد والانكسار واحترام المعلمين، ذلك أن الحرية هي المصلحة العليا التي يجب أن تتوفر في كل مجالات الحياة بما فيها مجال حرية الاعتقاد، من جهة أخرى، فإن **للحرّية مقصدًا شرعيًا، وهو من المقاصد** الكلية التي دعا إليها الإسلام وحافظ عليها، لأنها تحفظ حقوق النفس والدين والعقل والمال والعرض.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: "إن مقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم... فكل من يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة... **وكل ما يفوّت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة... وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها** يستحيل ألا تشتمل عليها ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق"(١١٠).

أما الحديث عن مسألة الخلاف فلا بد من النظر إليه على أنها أمر فطري، ابتلى الله بها عباده، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ ﴾(١١١). مع الإيمان الحازم بأن الاختلاف والتعدد

١٠٨- سورة يونس، الآيتان: ٩٠-٩١.

http://www.blog.saeeed.com/2010/11/freedom-religion-areas-exercise-borders-islam/
Accessed on 2-5-2011.

١٠٩- عبد الرحمن الكواكبي، **طبائع الاستبداد**، ص ١٢٢.

١١٠- **أبو حامد** محمد بن محمد الغزالي، **المستصفى في علم الأصول**، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ص ١٧٤.

١١١- سورة المائدة، الآية: ٤٨.

بين الناس لا محيد عنه وهو أمر فطري واقعي، يجب أن تتعامل معه الأجيال بطريقة حضارية تتفقد فيه مناطق الاتفاق التي تقود إلى التعارف الإنساني وليس إلى الشقاق والخصومات بين الشعوب. **مع اليقين** بإمكانية التسليم في صواب الخصم، وأن الخصم قد يكون على حق، وأنه كذلك **لا بد من التعهد والالتزام** باتباع الحق إن ظهر على يديه(١١٢) لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾(١١٣)، **مع إشاعة أن الاختلاف لا يفسد للود قضية.**

٢- من توابع الحرية الاعتقادية إحياء مفاهيم الحوار والجدل بالتي هي أحسن مع المخالفين دينًا: **إن** الخطاب القرآني امتدح **إجراءات الحوارات الفطنة تحت أجواء تعبق بالحرية الدينية حيث يتم تبادل الآراء** حول قضايا دينية واعتقادية مختلف فيها، والحوار في القرآن الكريم له جذوره وتأصيلاته، وهو يعني حصول الجواب من جانبين(١١٤)، **والمحاورة**: المراجعة في الكلام(١١٥). قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾(١١٦)، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾(١١٧). ولقد كثرت أساليب الحوار في الخطاب القرآني القائم على إثارة أسئلة مع الإنسان نفسه وتترك لعقله أن يجيب بعد تفكر وتأمل، ومن أمثلة ذلك، قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(١١٨). وقوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾(١١٩). وغير ذلك كثير من الأدلة التي تثير النظر في الأدلة الدالة على عظمة الله.

١١٢- http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=1375 Accessed on 2 May 2011.

١١٣- سورة سبأ، الآية: ٢٤.

١١٤- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ٨.

١١٥- الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج ٣، ص ٢٧٨.

١١٦- سورة الكهف، الآية: ٣٧.

١١٧- سورة المجادلة، الآية: ١.

١١٨- سورة الزمر، الآية: ٩.

١١٩- سورة الملك، الآيات: ٢٠-٢٢.

ومن الحوارات مع الخصوم التي خلدها القرآن الكريم وعبر عنها بالمحاجّة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١٢٠).

فالحوار قائم على قوة الحجة وبداهة البينة وليس على مجرد مخالفة الرأي، والاستفزاز للفكر والاستخاف بالمشاعر، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يناقش ملكًا **ملحدًا**، لم يهتم القرآن بذكر اسمه، بل ذكر **وصفه بأنه** طاغية قاتلٌ **جاهلٌ ضالٌ معاندٌ** مستكبرٌ أعطاه الله الملك ثم أخذ يجادل في وجوده وربوبيته **وتوحيده**. فإبراهيم أقام عليه الحجة، وأبطل دليله وأدهش فكره، وحير عقله، وبين كثير جهله، وقلة عقله، وألجمه وأبهته، لكنه في نفس الوقت بين له الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه. **وعليه فصاحب** المناظرة والحوار والمحاجّة يجب أن يكون مستعدًا **واعيًا** لمادة المحاورة وبأركانها حتى لو **كانت مع جهلة** معاندين وكفرة ضالين مستكبرين، ينكرون وجود الخالق سبحانه وتعالى، ويجب أن يكون هدفه الوصول إلى الحق ونصر دين الله عز وجل.

فإن الخليل عليه الصلاة والسلام استدل على وجود الخالق جل وعلا بوجود الشمس وغيرها من الكواكب على وجود فاعل اسمه: **المحيي والمميت وأنه هو وحده المتفرد بعمليتي الإحياء والإماتة**، ولهذا قال إبراهيم **عليه السلام معتمدًا** على قواعد العقل والمنطق والعلم والحجة والبرهان، والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فرد هذا المستكبر: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، **قال حكمي**: "عني أنه إذا أتي بالرجلين **قد تحتّم** قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما عفا عن الآخر **فكأنه قد أحيا هذا وأمات هذا الآخر وهذا ليس بمعارضة**"(١٢١). يقول ابن عاشور: "**والذي حاجّ** إبراهيم كافر لا محالة: بدليل قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾"(١٢٢).

إذن نتيجة كل هذا، أن أنبياء الله ورسله عليهم السلام كانوا يحاورون من أجل إحياء مقصد **الحرية الاعتقادية، وأن** يسلم الناس عن رضا وقناعة وطواعية ويقين، وفيه دليل بين واضح على تقرير **الخطاب القرآني** لحرية الاعتقاد باعتبارها **حقًا طبيعيًا ومكونًا أساسيًا** للشخصية الإنسانية، فحينما **تعلو**

١٢٠- سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

١٢١- حافظ بن أحمد حكمي، **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج ١، ص ١٠٧.

١٢٢- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢، ص٥٠٢.

قيمة الحرية المقاصدية فإن ذلك نصر أكيد للحق والحقيقة، فالوصول إلى الحق يصبح أسهل وتبني الحقيقة يساعد على تهميش الخلافات بين الشعوب والمفكرين والعلماء.

٣- ممارسة الشعائر الدينية(١٢٣) بشكل حر للجميع دون انتقاد أو استهزاء، أو تخويف أو تهديد: إن القرآن أبرز بشكل مميز منهجًا واضحًا للتعامل مع مخالفيه ومخالفي دين الله في العقيدة والشعائر، يجمل في أنه احترم حقهم وحريتهم في ممارسة كل أشكال شعائرهم الدينية وأتاح لهم حرية التعبد على مقتضى ما يدينون.

حرية ممارسة العبادة وضمان سلامة دورها:

يفهم ضمنًا من قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾(١٢٤) أنه متى لم يجبر الإسلام العظيم غير المسلمين على الدخول في دين الله، فإنه تعهد لهم بممارسة طقوس الدين الذي يتبعونه، وضمّن لهم كذلك الأمن على أنفسهم في ممارسة هذه الشعائر وأن لا يتعرضوا لأي ضغط من أي سلطة مسلمة مهما كان قوتها على ترك دينهم، وضمّن لهم كذلك السلامة لدور التعبد التي يمارسون فيها شعائر دينهم.

وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته: "وكتب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأُسقُف بني الحارث ابن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم على ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بَيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم، وجوار الله ورسوله لا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين"(١٢٥).

ووفق هذا الهدي السمح سار الخلفاء الراشدون من بعده صلى الله عليه وسلم، فقد خاف عمر من أن ينقض عهده من بعد وفاته فلم يصل في كنيسة القمامة حين أتاها وجلس في صحنها، فلما حان وقت الصلاة قال للبطريرك: أريد الصلاة. فقال له البطريرك: صل موضعك فامتنع عمر رضي الله عنه وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردًا، فلما قضى صلاته قال للبترك: "لو صليتُ داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي، وقالوا: هنا صلى عمر"(١٢٦). وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة، ولا

١٢٣- http://islamtoday.net/toislam/art-111-3.htm. Accessed on 2-5-2011

١٢٤- سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

١٢٥- محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ج ١، ص ٢٦٦.

١٢٦- محمد الغزالي، **التعصب بين المسيحية والإسلام**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ص ١٥٣.

يؤذن عليها، ثم قال للبترك: "أرني موضعًا أبني فيه مسجدًا فقال: على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب، ووجد عليها دمًا كثيرًا، فشرع في إزالته"(١٢٧). وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: "لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار"(١٢٨).

وأقرت الشريعة الإسلامية تبعا لذلك احترام أماكن العبادة للناس جميعا دون تمييز بين الأديان وذلك استنادا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾(١٢٩).

والمدقق يجد في الخطاب احترامًا شديدًا لغير المسلمين الذين يسكنون في دولة الإسلام، ونجده بهدف الحرص على شعائر غير المسلمين الدينية وأماكن دينهم قدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد، ربما باعتبار أنها أقدم منها فى الوجود، أو للانتقال من الشريف إلى الأشرف، وهذا فيه تبجيل شديد لصوامع وكُنس ومعابد أهل الديانات الأخرى. فلهم ما لنا وعليهم ما علينا.

ومن حقوق غير المسلم العيش الآمن الكريم في دولة الإسلام، كما يحق له أن يباشر طقوسه الدينية بعيدًا عن الاستفزاز لمشاعر المسلمين، كما يحق لهم أن يبنوا معابدهم إن لم تكن في الموجود كفاية، كما يحق لهم أن ينشأوا لأنفسهم معاهد تربوية ودينية ومدارس تعليمية.

حرية الرأي: وتسمى أيضًا بحرية التفكير والتعبير عن الرأي، فحرية الفكر، تعني أن يختار المرء أي فكر يريد وأي تصور يشاء وهي تشبه حرية المعتقد. وإذا نظرنا إلى المادة ١٩ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الحق في حرية الرأي والتعبير، نجد أنه جاء فيها: "لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفى التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود"(١٣٠).

وإذا انتقلنا إلى الخطاب القرآني نجده يتحدث عن نوعين من التفكير الحر، النوع الأول: التفكير الحر أو حرية التفكير بالمعنى الذي ألفناه، أي أن يعتقد الإنسان أي فكر أو تصور أو اعتقاد كما يهوى، وأما النوع الثاني من التفكير الحر، فيتبنى فيه الإنسان حرية مقيدة تلزمه بقوانين العبودية لله وحده دون سواه.

١٢٧- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بدون المعلومات المطبعية، ج ٢، ص ٢٢٥.

١٢٨- محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، تاريخ الأمم والرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ج٤، ص ٧٢.

١٢٩- سورة الحج، الآية: ٤٠.

١٣٠- http://kamalazabdi1.maktoobblog.com/128746/ Accessed on 10-05-2011

لذلك فإننا نجد القرآن الكريم يحث المؤمنين به وغير المؤمنين بدعواه أن يتخلصوا من موانع التفكير، وسلطات الإرهاب الفكري التي تحجز عملية التعقل والتفهم والانطلاق نحو الخضوع لله على أسس عقلانية، وهو أسلوب لو تدبرناه وتفهمنا خطواته لوجدناه دعوة ناشطة لتحريك العقول والألباب ليفهم الإنسان سر وجوده ويدرك حجمه كعبد ويستوعب الحكمة واللغز من خلقه في هذه الحياة، ويكون بعدها إيجابيًا فيخطط لينقذ نفسه من تبني سلوكيات لها عواقب خطيرة.

فالقرآن طلب من المرء أن يكون حرًا في تفكيره وأن يتبنى أساليب تعينه على تمييز الحق وإدراك الحقيقة التي ربما يشوبها كثير من الألوان الضبابية بغية الوصول إلى نتائج صحيحة.

ومن الأساليب التي تعين على ذلك أي تمييز الحق من الباطل، ما دعا إليه الخطاب القرآني من التفكر في المخلوقات صغيرها وكبيرها وربط الأسباب بالمسببات في جميع الشؤون والمجالات الكونية والدنيوية والدينية والأخروية. وقد كثرت الآيات الداعية إلى التفكير نختار منها الآتي: قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾(١٣١). وقال تعالى في عشر آيات يدعو عباده إلى التفكير: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١٣٢). فالقصص مليئة بالفكر ومدعاة إلى التفكير والاعتبار. لذلك قال بعد تبدل أحوال الدنيا: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١٣٣). وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١٣٤). وحين تحدث عن الزواج قال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١٣٥). يقول ابن عاشور: "إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام، وأكثر ما تعرض له، وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح، ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة، خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء. وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي، لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه"(١٣٦).

١٣١- سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠-١٩١.

١٣٢- سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

١٣٣- سورة يونس، الآية: ٢٤.

١٣٤- سورة الرعد، الآية: ٣.

١٣٥- سورة الروم، الآية: ٢١.

١٣٦- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣، ص ٥١.

وهناك أحاديث كثيرة تحث على التفكير وتنادي بإصلاحه، نختار منها: "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله"(١٣٧). والقصد من خلق الله كالسماوات بكواكبها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بينهما وهو الجو بغيومه وأمطاره ورعده وبرقه وصواعقه، وما أشبه ذلك فلا تتحرك ذرة منه إلا والله سبحانه حكم شاهدة له بالوحدانية تدل على عظمته وكبريائه(١٣٨)، يقول ابن حجر الهيثمي: "لأن التفكر في النعم وخلق الله يؤدي إلى مزيد الخضوع للحق، والتواضع للخلق والرجوع إلى الله بالذلة والانكسار، وإدامة التوسل إليه آناء الليل وأطراف النهار، أن لا يحرمه مزيد فضله ونعمه ولا يسلبه واسع جوده وكرمه ، فإن الإعراض عن تفكر النعم عاقبته الوخيمة وغايته المشؤومة سلب النعم وإذاقة النقم"(١٣٩). أما في مسألة حرمة التفكر في الله، يقول المناوي: "فإنه تعالى لا تحيط به الأفكار بل تتحير فيه العقول والأنظار"(١٤٠).

قال الروذباذي: "التفكر(١٤١) على أربعة أنحاء:

الأولى: فكرة في آيات الله وفكرة في خلقه وعلامتها تولد المحبة. فقد قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾(١٤٢). دلت هذه الآية الكريمة، على أن عدم التفكر فيما بين أيدينا وما خلفنا مما خلق الله عز وجل، دليل على بلادة العقول والنفوس والأخلاق، إذ التفكير يؤدي إلى اليقين بعظيم قدرة الله على كل شيء ومنها البعث والحشر والحساب، وهذا ما

١٣٧- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير**، تحقيق: يوسف النبهاني، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، رقم الحديث: ٥٤٢٧، ج ٢، ص ٣٢. ورواه أبو نعيم الحافظ في **الحلية من حديث ابن عباس مرفوعًا**، ورواه الأصبهاني في **الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه**، انظر: **أبو الفضل العراقي، المغني عن حمل الأسفار، تحقيق**: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، **كتاب التفكر، ج ٢، ص ١١٩٣**. وأسانيد الحديث ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة والمعنى صحيح.

١٣٨- عبد الرؤوف المناوي، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط١، ١٣٥٦هـ، ج ٣، ص٢٦٢.

١٣٩- أحمد شهاب الدين ابن حجر الهيتمي المكي، **الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي**، دار الفكر، ص ٥٤.

١٤٠- الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، **التيسير بشرح الجامع الصغير**، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ١، ص ٩٢٣.

١٤١- **التفكر**: هو جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح، انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٦، ص ١١٢. وعرفه في مكان آخر بأنه تكلف الفكر وهو العلم. انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٢، ص ٩٤.

١٤٢- سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

شرف الله به نبيه الكريم سيدنا إبراهيم عليه السلام، بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾(١٤٣).

والثانية: فكرة في وعد الله بثواب وعلامتها تولد الرغبة. **وآيات الوعد هي آيات تبثّ** الأمل في نفوس المؤمنين وتبشرهم بالنجاة من العقاب وبعظيم الثواب، فالله عز وجل يصف ذاته بأنه لا يخلف وعده، وسوف ينجز ما وعد به عباده، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾(١٤٤).

والثالثة: فكرة في وعيده بالعذاب وعلامته تولد الرهبة. إن آيات الوعيد تتوعد وتهدد الكافرين العصاة وتخوفهم بقوة الله، وتنذرهم بعذاب أكيد وعقاب صارم لأنهم خالفوا ما أمرهم الله به. **ومنها** قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾(١٤٥).

والرابعة: فكرة في جفاء النفس مع إحسان الله وعلامتها تولد الحياء من الله"(١٤٦). ومن أمثال هذه الدعوات إلى التفكير بمثل هذا النوع من الأفكار، دعوة الله للكفار بشكل منصف، ومتجرد من الهوى والتعصب في النظر والتأمل في الحقائق والمبادئ والقيم التي دعاهم **إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم** والنظر في مواقفه الحضارية والإنسانية، ليتأكد لهم خطؤهم فيما اتهموه به ظلمًا **وعلوًا** وما ألصقوه به من تهم ليس لها رصيد من الواقع. فالقرآن يبين لهم منهج التفكر هذا **وذلك بشكل فردي وثنائي، يقول ابن عاشور: "فإن من أهل النظر من ينشط إليه بالمدارسة ما لا ينشطه بالخلوة. ومنهم من حاله بعكس هذا"**(١٤٧). قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾(١٤٨).

١٤٣- سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

١٤٤- سورة النساء، الآية: ١٢٢.

١٤٥- سورة النساء، الآية: ٥٦.

١٤٦- انظر: المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ج ٣، ص ٢٦٣.

١٤٧- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢، ص ٩٢.

١٤٨- سورة سبأ، الآية: ٤٦.

فهي دعوة لمحاسبة النفس تولد الحياء من الله فتؤدي إلى الاستسلام الكامل لرسالة الله **ولإعلان صدق دعوة النبي الكريم.**

خاتمة البحث:

في ضوء ما مر من البحث وما فهمنا لمقصد الحرية في الخطاب القرآني توصلنا إلى النتائج الآتية:

أولًا: الحرية هي الانعتاق من كل أشكال القهر، والسيطرة المغلة للفكر والعقل والتصورات، وهي في حد ذاتها حق إنساني أصيل، ومنحة ربانية لا يجوز سلبها من أي مخلوق **لأن ذلك يعني موت ذلك وقتل إبداعه.**

ثانيًا: الحرية من المنظور القرآني هي تلك الحرية التي تلتقي مع التوحيد والتعبد الخالص لله، وتحرير **العبد من عبادة العبيد وتوجيهه** نحو عبادة الله، وهي تلتقي مع الفطرة الإنسانية القائمة على الاختيار واتخاذ القرار بشكل مسؤول. **فالحرية** من الرؤية القرآنية هي انعتاق **الإنسان وتحرره** من كل قيد وغلّ ومانع لنمو الطاقات الإنسانية الكامنة في كل إنسان.

ثالثًا: الحرية لها أنواع وأشكال، ولها حضور كثيف في الخطاب القرآني، ولكن ليس بوجود كلمة الحرية إنما من خلال وجود مشتقاتها، ك: "حر وتحرير ومحررًا" وغير ذلك، ولقد أدان القرآن كل أشكال الأغلال القائمة على سلب الحرية من الإنسان مهما كان وضعه: حاكمًا أو محكومًا، **رجلًا** أو امرأة، صغيرًا أو كبيرًا، **عربيًا أو أعجميًا**، أبيض أو أسود... **إلخ.**

رابعًا: إن الله تعالى أنعم على **الإنسان** بنعمة الاختيار فلا يجوز **لأحد** سلب هذا الاختيار إلا في استثناء **واحد وهو وقوع الظلم،** فللإنسان الاختيار أو حق الاختيار للمسلك الذي يشاء إلا **إذا** أدى هذا الاختيار لممارسة ظلم ضد **إنسان آخر،** وهذا الكلام يدفع إلى الحديث حول حرية المعتقد في نهاية البحث لننتقل الأن إلى الحرية الفكرية.

خامسًا: الحرية الشرعية أو المقصودة ليست هي الحرية المطلقة التي لا تعترف بالقيود ولا الحدود، بل هي الحرية المقيدة التي تنبع عن اختيار نزيه للتصرفات غير **الضارة** بالنفس أو بالغير، ولا **تصطدم بحريات الآخرين.** ولهذا فلكي يعيش الفرد آمنًا **حرًا محتفظًا بنصيبه من الحرية، وبعيدًا عن المصادمة مع الآخرين، لا بدّ له أن يتنازل قليلًا** عن شيء من حريته.

سادسًا: إن الحرية الكاملة هي الوصول إلى الله أو ما يعبر عنه بلقاء الله، فعندما **يحتل الله وحده قلبك عندها تكون حرًا. إن** القرآن الكريم يقرر أن ليس للإنسان الحرية في اعتقاد ما يشاء فهو **(أي الإنسان)** في نظر القرآن الكريم لا يملك لنفسه مسوغًا **ومرخصًا وإذنًا ليختار ما يشاء ويعتقد**

بما يشاء ولكن وفي الوقت نفسه يعلن القرآن بأن الإنسان مختار وقادر، وهذه المفارقة هي محل الإشكال.

The Concept of Freedom in the Qur'ɲnic Discourse: a Thematic Study

This article aims at discussing the concept of freedom from Qur'ɲnic perspective; it examines its definition, forms of its availability, its association with choice, and moral guidelines for it. Among the important findings of this study is that liberty according to the Qur'ɲn, is the heaviest of human responsibility rather than a privilege. Hence there was no compulsion in religion. The writer notes the absence of a word equivalent or proximate to the current meaning of freedom. He however, concludes that despite this fact, the concept of freedom and liberty is integral to and inbuilt in the very core of the Qur'ɲnic message.

The writer concludes that the real kind of freedom and liberty is that which is voluntarily devoted to the obedience of God and not one which is pursued for its own sake without any purposeful direction.

****